رحـــــلة إلى الهند

للدكتور عبد الوهاب عزام بك

عميد كلية الآداب

— ١ —

كان السفر إلى الهند أمنية تطاول عليها الزمان ، وماطلت بها الأيام . وكدت أظفر بها سنة ١٩٣٩ م ، إذ ندبتني جامعة فؤاد لتمثيلها في مؤتمر للمستشرقين كان يقدر أن يجتمع في حيدرآباد صيف ذلك العام ، ولكن الحرب العاتية التي ثارت حالت دون الأمنية .

وكان شوقي إلى الهند يزداد كلما زادت معرفتي بها ، والتقائي بأهلها ، واطلاعي على لغاتها وآدابها .

فلما دعت الجامعة الملية الإسلامية إلى احتفال لها في دهلي وجاءت الدعوة إلى جامعة فؤاد ، كما بلغتني دعوة خاصة ، وجدتها فرصة تغتنم ، لولا أن الوقت كان قد ضاق عن التأهب لمثل هذه الرحلة . فاعتذرت جامعة فؤاد .

ثم جاءت الدعوة إلى مؤتمر العلاقات الآسيوية ، وانتهى الأمر إلى أن ندبتني الحكومة لشهود المؤتمر رقيباً . وكان هذا الندب قبيل الموعد الذي ضرب للسفر على غير اختيار ، وإنما حددته مواعيد الطائرات . فلبيت على بعد الشقة ، وهيبة الطريق ، وضيق الوقت ، استجابة لما في النفس من تطلع إلى الهند وحرص على زيارتها .

— ٢ —

ذهبنا إلى مطار ألماظة والساعة واحدة بعد ظهر يوم الثلاثاء الثامن عشر من آذار (مارس) سنة ١٩٤٧ آخذين أهبتنا للسفر على إحدى طائرات الشركة الإنكليزية . فأخبرنا ، بعد أن حان الموعد ، أن الرياح غير ملائمة ، وأن السفر أرجئ إلى صباح الغد ، وجعلت الساعة الخامسة موعداً لرجوعنا إلى المطار .

وأخذنا مكاننا في الطائرة والساعة خمس ونصف ، وأغلق الباب ومر بنا أحد ضباط الطائرة يقول : احزموا أوساطكم ، وأشار إلى أحزمة مثبتة على المقاعد .

قلت : إن هذا أوان الحزم . وتوقعت أن تميد الطائرة في سيرها ميداناً لا يثبت فيه على مكانه إلا من احتزم ، فجاشت نفسي وجرت الطائرة على الأرض فوقفت فسارت فاستقلت صاعدة ، وفي النفس ملؤها هيبة وإعجاباً . ومر علينا الضابط مشيراً أن نحل الأحزمة ، فعرفت أن هذا الحزم احتياط حين صعود الطائرة فحسب ، فسرّي عن نفسي .

وتأملت الطريق بعد حين ، فإذا بيداء متشابهة لا ترى العين من معالمها إلا قليلا ، وتوالت مناظر متقاربة ، وأشباح متشاكلة .

وكرت ساعات بين التفكر والنظر إلى الأرض وكتابة بعض الخاطرات ، حتى اختلف المنظر قليلا ، ولاحت حفرة ضيقة ثم اتسعت ، وبدا عمران وأبنية ، فظننت أنها قرية في الصحراء ، وشرعت أفكر ما عسى أن تكون هذه القرية الصحراوية ! فقطع عليّ الفكر قناة ماء طويلة متعرجة عرضها في رأي العين خطوة واحدة ، فعجبت من هذه القناة أيضاً ! ولم أملك أن سألت رفيقاً أمامي : ما تظن هذه ؟ قال : أظنها الفرات . وما فكرت أنا في الفرات لتوهمي أنا منه جد بعيدين ، وما قدرت أن الطائرة طوت ما بين النيل والفرات في أقل من أربع ساعات . فرحت بالفرات وأخذت أتأمل قراه وزروعه ، وهجمت الطائرة على ماء وسيع تختلف على السير أشكاله ومناظره ، فعرفت أنه البطائح التي تسمى في العراق اليوم « الأهوار » ، وما قدرت من قبل أن هذه « الأهوار » تمتد هذه المسافات الشاسعة وتساير الطائرة قريباً من نصف ساعة .

شغلتني الأهوار بألوانها وأعشابها وقصبها ، وما يبدو للعين خافقاً من جزرها ودورها ، حتى حومت الطائرة هابطة ، حتى استقرت على أرض البصرة ، وكانت الساعة عشراً بحساب مصر وإحدى عشرة بتوقيت العراق . ليس بين القاهرة والبصرة في سرعة الطائرات إلا أربع ساعات ! إنها لإحدى الكبر !

أطلأنت نفوسنا بالقرار على الأرض ساعة تغدينا فيها ، ثم استأنفنا الطيران صوب كراتشي ، والمسافة بينهما نحو ألف وأربعمائة ميل . وقد توجهت الطائرة إلى الجنوب الشرقي على طريقها المعتاد ، وبعد برهة أطلعنا ضابط على الخريطة كدأب ضباط الطائرات مع مسافريها ، وأخبرنا أنا نجتاز الآن الرأس البارز في الخليج الفارسي شرق جزيرة العرب

قلت : كيف وليس هذا طريقنا المخطوط على الخريطة ؟ قال : الرياح غير ملائمة هناك ، فعدلنا إلى هذا الطريق .

ورأيت صخوراً عاتية موحشة اجتزناها ، فسايرنا الساحل حيناً ، ثم عبرنا الخليج ، فسايرنا أكثر الوقت ساحل إيران المشرف على المحيط الهندى ، وهو ساحل ضيق تشرف عليه جبال عالية تفصل بينه وبين سائر الأرض . ولهذا لم يألف الإيرانيون البحر ، ولا مرنوا على ركوبه ، فلم يكونوا فى تاريخهم من أمم البحار ، المولعين بالأسفار فيها .

والساحل متشابه ، لم أتبين من معالمه إلا آثار سيول أو أنهار متمعجة تسيل من الجبال إلى البحر .

وما زلنا بين تأمل فى الأرض التى نطير فوقها ، والجبال التى نحاذيها ونسامتها ونعلوها ، والبحر الذى نسايره حتى ستر الليل المشاهد إلا أشباحاً خفية . فكان مسرح الطرف بين الظلام الذى تعلوه ، وبصيص الكواكب التى تعلونا .

ولاحت كرتشى فى ظلام الليل فى أضوائها منتشرة على البر والبحر ، فكانت منظراً عجيباً مؤنساً فى هذا القفر الموحش ، وبشرى بالوصول منيرة فى العين وانقلب ، ورأيت على مقربة من الساحل جبلا فى البحر عالياً عليه منارات ومصابيح زاد فى جلال المرأى وجماله .

ودوّمت الطائرة كثيراً حتى توهمت أنها لا تهتدى إلى مهبطها ، ثم أسفّت حتى لمست الأرض وزافت[1] حتى استقرت عليها .

ولله ما أجل أن يحس الراكب وقع مجلاتها على الأرض بعد أن انقطعت بينه وبين الأرض الأسباب ، وتداولته الرياح ساعات طويلة . وكانت الساعة ستاً بتوقيت البصرة ، وثمانياً ونصفاً بتوقيت الهند .

— ٣ —

استرحنا ليلتنا فى فندق قريب من المطار ، وغدونا إلى الطائرة فاستقلت والساعة ثمان وربع تؤم بنا دهلى ، فطرنا فوق صحراء السند ، وأرض أخرى معمورة لم نر فيها إلا قرى صغيرة يكاد البصر لا يدركها .

وقد وجدت فى مذكرتى هذه الجملة :

« نحن الآن على بعد مائة وسبعين ميلا إلى الجنوب الغربى من دهلى ، والارتفاع عن البحر تسعة آلاف قدم ، وعن الأرض ثمانية آلاف وخمسمائة ، والساعة عشر ونصف ، (يا لطيف يا سلام) »

(١) زافت الحمامة : مشت تسحب ذنبها على الأرض .

ولما قاربنا دهلى ، وظننا أن السفرة انتهت ، والمشقة زالت ، وشرعنا نعد الأمتعة والدقائق ، أخذت طائرتنا ترجف ؛ تهبط فتعلو فلا تستقر فى مستوى . وكان هذا أول ما عهدت من تدئين[1] الطائرات ، فأخذ منى الخوف ، وبلغ منى الدوار ، وكان أمامى رفيق ركب معنا فى كرتشى ، فرأيته أغمض عينيه ، وأعربت صفرة وجهه عما به . وما زالت طائرتنا تهبط كثيراً ، ثم تجهد ساعدة لتبلغ مستواها ، فيهبط بها الهواء كرة أخرى ، حتى مر بى شاب من خدام الطائرة ، فلم أملك أن قلت له : ما هذا ؟ قال : يا سيدى نحن هابطون بعد دقائق قليلة . وأشرت إلى أحد الرفقاء سائلا متململا فقال : نحن فى إقليم جبلى ، والهواء حار ، ومن هذا كان هذا الاضطراب .

هبطت الطائرة فى دهلى بعد أن فعلت بنا ما فعلت ، وختمت رحلتنا بما أرهبنا ...

(للكلام صلة)

عبد الوهاب عزام

(١) دئن الطائر : طار وأسرع الهبوط فى مواضع متقاربة وواتر ذلك (لسان العرب)

رســـالة الفكر الحر

مجموعة رسائل فى الأدب والعلم والتاريخ والفلسفة

للأستاذ إسماعيل مظهر

صدر منها :

١ — عصر الاشتراكية ثمنه ٨ صاغاً

٢ — القانون والحرية فى حضارة الغـــرب ثمنه ٤ صاغاً

الرسالة الثالثة تظهر قريباً

طوفانه القدم في الصراع بين اللاهوت والعلم

ملتزمو الطبع والنشر أصحاب

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابى الحلبى وشركاه — ت ٥٠٨٥٦ بمصر